الفن الموسيقي سلاح ضد العنف

د. جعلوك عبد الرزّاق

يجمع العلماء على أن ظاهرتي الخير والشر الأبديتين كانتا ولازالتا الشغل الشاغل للفكر البشري خصوصا عند الفلاسفة ورجال الدين، وتباينت على مر العصور غلبة إحداهما على الأخرى، تارة يسود الخير ويعم رخاء الناس والمجتمعات، وأخرى ينتفض الشر والهمجية والإرهاب والعنف ويعم البؤس والأسى.

وبين هذا وذاك نجد المصلحين والفلاسفة ورجال الدين دائبين لإيجاد الوسائل والأساليب لإطفاء نار العنف والشر والهمجية والإرهاب، فتنوعت وسائلهم وتعددت أساليبهم، وغلبت عند أكثرهم فكرة العلاج بالفن الموسيقي والغناء، لما لهذا السلاح من أثر في أعماق النفس البشرية لقلع جذور العنف والشر والهمجية والإرهاب من جذورها، فهذا أفلاطون قد أبدى رأيه في هذا الجانب حيث إنه تمسك بالرأي القائل: إن الموسيقى ينبغي أن تكون وسيلة من وسائل دعم الفضيلة الأخلاق، وكان يرى أن الموسيقى أرفع من الفنون الأخرى على أساس أن تأثيرا لإيقاع واللحن في الروح الباطنة للإنسان وفي حياته الانفعالية أقوى من تأثير العمارة والتصوير أو النحت، وهكذا فإن الطفل الذي يستمع إلى المقامات الموسيقية المناسبة تنمو لديه دون أن يشعر عادات وقدرات مرهفة تتيح له تمييزاً للخير من الشر، وبعد أن تشكل الموسيقى شخصية الطفل وتجعله مستقرا في انفعالاته تكشف له دراسة الفلسفة عن وعي كامل أسمى أنواع المعرفة[1]. لم يكن هذا الرأي بمجتمع أفلاطون وعصره، بل إن عددا من مفكري وفلاسفة العصور اللاحقة للعصر اليوناني القديم قد أخذوا به وتمسكوا فيه، وخصوصا في مجتمعات الحضارة الغربية، وبهذا قال "سمير شاهين" في مقدمة كتابه روح الموسيقى: إن هذه المبادئ التي تحكمت في موقف الفلاسفة من الموسيقى طوال عصور الحضارة الغربية، فهي قد انتقلت بعد العصر اليوناني إلى المسيحية في العصور الوسطى وكانت هي المحور الذي دار حوله تفكير آباء الكنيسة الكاثوليكية في الموسيقى، وكذا آراء المصلحين البروستانت في عصر النهضة، واستمر الفلاسفة يدعون إلى هذه الآراء في عصر الباروك والعصرين الكلاسيكي والرومانسي، وما زال تأثيرهما واضحا في النقد الجمالي الموسيقي حتى اليوم، وبعبارة أخرى فقد امتد تأثير أفلاطون في هذا المجال بدوره حتى عصرنا الحاضر[2].

ولم يكن رأي أفلاطون مطلقا على سجيته دون نقد أو اعتراض عند جميع الفلاسفة والمفكرين، فمنهم من رأى جانبا آخر حال دون التفتح على أفكار مستقبلية تمسكا بأفكار محافظة حددت معالمها في إطار محدود، وقد أورد **سمير شاهين** رأيا بهذا قال: وإذا كان أفلاطون بآرائه هذه هو الذي تحكم في تـــفكير الفلاسفة في الموسيقى حتى اليوم، فلا عجب إذن أن تكون أفكار الفلاسفة عاملا معـــوقا لتطور الفن الموسيقي، وأن يكون الطابع الغالب على هذه الأفكار هو الطابـــع المحافظ الذي يدافع عن القيم الماضية أو الحاضرة ولا يثق في أي تطور يبشر به المستقبل[3].

وكان أفلاطون قـــد حدد أربعا من الأفكار الرئيسية حسب رأيه في وسيلة مكافحة العنف والشر والإرهاب والهمجية باستخدام الموسيقى سلاحا، لما لها من قدرة على التحكم في تصرفات النفوس البشرية وعلاج الخلل بها، مشترطا أن لا يكون استخدام هذه الوسيلة (أي الموسيقى) دون دراية أو علم، حتى لا تنقلب إيجابياتها سلبا تعكس الهدف المنشود، ويكون ضررها أكثر من نفعها، حيث أكد على ضرورة الحذر من هذه القوة السحرية الجبارة وما لها من أثر إيجابي وسلبي على نفوس الناس، وكانت آراؤه الأربعة قد أوردها "**سمير شاهين**" في كتابه روح الموسيقى حيث قال: في كتابات الفيلسوف اليوناني الكبير أفلاطون والتي جاءت في محاوراته ولا سيما في (الجمهورية والقوانين) منذ أكثر من ألفي عام، ذكر أربعة من آراء رئيسية هي:

1) التأثير الأخلاقي للموسيقى: من حيث أن لها القدرة على دعم العنصر الفاضل في الشخصية أو زيادة ميلها إلى الرذائل، تبعا لنوع الألحان والإيقاعات والمقامات المستخدمة فيها.

2) التأثير النفسي للموسيقى من حيث قدرتها على رفع معنويات الإنسان أو الهبوط بها، وشفاء أمراض معينة أو بعث الاضطراب والاختلال في النفس.

3) ضرورة قيام علاقة سليمة بين الأنغام والكلمات والربط بين الموسيقى والشعر برباط وثيق، وإيثار الموسيقى المصاحبة للغناء على الموسيقى الخالصة في معظم الأحيان.

4) الشك في قيمة التجديدات الموسيقية والنظر إليها بعين الحذر على أساس أن التجديد في هذا المجال قد يؤدي إلى اضطراب النفوس وبالتالي إلى اختلال في نظم الدولة.

هذه المبادئ الأربعة على الرغم مما تتضمنه من مواقف سلبية من الموسيقى تنطوي على اعتـــقاد راسخ بقوة تأثير هذا الفن في الإنسان، وبأن الموسيقى قوة هائلة يستطيع الإنسان أن يستغلها في الخير والشر على السواء، ويمتد نفعها أو ضررها حتى يشمل المجتمع بأسره وما يسوده من نظم اجتماعية وسياسية.

لذا كان الفلاسفة والمفكرون منذ عهد أفلاطون ينظرون بعين الحذر إلى هذه القوة السحرية الجبارة ويحاولون وضع الضمانات التي تكفل استخدامها لأغراض تلائم القيم التي يدعون إليها[4].

وإن كانت هذه أفكار أفلاطون قد انعكست في كتابات معظم الفلاسفة من بعده، فإن آخرين لهم رأي أعمق من ذلك في وسيلة الفن الموسيقي ومدى تأثيره في سلوك الإنسان في جميع مجالات واقع حياته العملية، وقد أشار "جوليوس بورتنوي" في كتابه الفيلسوف والفن الموسيقي إلى هذا حيث قال: إن عموم الفلاسفة كتابا ليس لديهم من الخبرة الفنية ما يتيح لهم تقويم التركيب الفعلي للموسيقى، وكانت لديهم مع ذلك آراء كثيرة في الموسيقى وفي تأثير الفن الموسيقي في سلوك الإنسان، والواقع أن الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية للإنسان الغربي تشهد بوضوح بمدى تأثير نظريات الفلاسفة في مجرى الموسيقى في الحضارة الغربية.

ولقد كان الفيلسوف القديم يرى في الموسيقى أكثر من مجرد تعبير عن المشاعر، فلم يكن يقنع بالنظر إليها على أنها وسيلة من وسائل الاتصال الفني ينقل بها الموسيقار الشاعر في العالم القديم أفكاره وأحـــواله الانفعالية إلى الآخرين[5].

ويؤكد الفلاسفة أن وسيلة العلاج الموسيقي سلاح ذو حدين، فهي بقدر ما تهذب الطبع وترقي العواطف بقدر ما تزيد بعض البشر انحطاطا ممن لم يكن لديهم من العتاد الذهني ما يتيح لهم فهم الموسيقى العقلية ذاتها، وبهذا الصدد قال "بورتـــنوي": حاول الفيلسوف اليوناني أن يعرف إن كان أصل الموسيقى يرجع إلى مصدر علوي معين يعلو على أفهام البشر، وكان يؤمن بأنه قد توصل إلى معان أخلاقية في الألحان، وإلى دلالات أخلاقية في الإيقاعات، وعندما لاحظ تأثير الموسيقى في سلوك الإنسان، وصل إلى أن الموسيقى قد تهذب الطبع وقد تزيده انحطاطا، ولما لم يكن لديه من العتاد الذهني ما يتيح له فهم الموسيقى العقلية ذاتها، فقد نسب إلى أصل الموسيقى وقواها خصائص صوفية، ونظرا إلى انعدام ثقته في الانفعالات وإلى تمجيده للعقل فقد كان يخشى من تلك الآثار التي يمكن أن تجلبها الإيقاعات المتوثبة والأنغام المفرطة في حسيتها على الجسم والذهن، وقد استنتج أن الإيقاع واللحن إنما هما محاكاة لحركات الأجرام السماوية التي تصدر عنها خلال حركتها في السماوات موسيقى إلهية لا تدركها آذان البشر، وعلى أساس هذا الافتراض انتهى إلى أن فن الموسيقى مقلد لقوانين الطبيعة، ولما كان النظام الأخلاقي ساريا على الكون فإن للموسيقى قيمة أخلاقية[6].

هكذا قد ارتفع الفلاسفة خصوصا اليونانيين بالموسيقى إلى أعالي الكون وحاكوا الأجرام السماوية واعتبروا أن الفن الموسيقي طبيعي من أصل تكوين الكون والطبيعة نفسها، وأن الكون والطبيعة ذات أصول أخلاقية خالية من الشر والهمجية و العنف والإرهاب.

وأساسات الفن الموسيقي هي ذلك التعبير عن المشاعر بما يؤثر بالمشاعر ويحرك العواطف، وتأثيرها يمتد إلى جذور النفس البشرية ويقتلع منها الهم والغم والقلق ويثير انفعالاتها واستعدادها لاقتلاع فكرة الشر والعنف والهمجية والإرهاب، وقد ذكر **بورتنوي** أيضا في هذا قال: إن الموسيقى في أساسها تعبير عن المشاعر في شكل فني قوام أسلوبه الإيقاع والنغم، فالموسيقى تنبعث عن المشاعر و تأثيرها إنما ينصب على المشاعر، وهي ناشئة من العاطفة التي تحرك العواطف، وجذور الموسيقى متغلغلة في تربة الواقع العقلي، فهي نتاج للتجربة البشرية حتى حين تعلو على التجربة، إذ تبلور المشاعر في أنغام حسية وإيقاعات متحركة تنقلنا إلى قيم شفافة من النشوة الواقعية، وللموسيقى القدر على تخليصنا من القلق والهموم وهي وسيلة للاتصال تفوق في فعاليتها وقدرتها على الإثارة الانفعالية كل صور التعبير الأخرى التي استحدثها الإنسان لكي ينقل بها مشاعره وأفكاره إلى الآخرين[7].

و لم تكن تلك الأفكار منصبة على الفن وحده دون الفنان الصانع لذاك الفن، ذلك المبدع المظلوم الذي لم ينل حظه على مدى العصور، وكان في كثير من الأحيان أداة بيد السلطة أو تحت رحمة نزوات من يرعاه، و لم يفده صموده يوما على مر عصور التاريخ،؟ وبهذا قال **بورتنوي**: ولقد وقف الموسيقي صامدا في وجه السلطة على مر عصور التاريخ وإن اضطر في الماضي ما زال مضطرا في الحاضر إلى الرجوع عن موقفه الجمالي إلى حد ما، حتى يضمن سلامته إزاء الأوامر الغاشمة لسلطة دينية أو نزوات سيد يرعاه، أو قرارات لجنة سياسية، وهكذا كان الموسيقار عبداً للأخلاق والدين وصنيعة لسيد غني وأداة لنشر إديولوجية سياسية، ولكنه خلال هذا كله لم يكن في أي وقت أداة طيعة تماما في يد أي واحد من هؤلاء[8].

وقد انتهى **بورتنوي** إلى أن الفيلسوف ومعه الكاهن كانا في معظم الأحيان حائلين يقفان في وجه تطور التيارات الفنية على مر القرون، وأثبت الزمان أنهما نبيان زائفان، على حين أن الفنان الذي ندد به (بحكمتيهما) لم تقتصر مقدرته على التبصر بحقيقة عصره، بل استطاع أن يستبق حاجات المستقبل ويتكهن بها[9].

ورغم كل هذا نرى أخيرا أن وسيلة الفن الموسيقي سلاح مؤثر، وقد قال **سمير شاهين**: أن هدف الفن النهائي هو تخفيف الهمجية وتهذيب الأخلاق، لأنه يترك الإنسان وجها لوجه أمام غرائزه وكأنها غريبة عنه، وبهذه الطريقة ينقذه منها، إذ أن تحول الأهواء إلى موضوع للتصور يفقدها قوتها، ويجردها من كثافتها، فيكفي أن نجسد ألمنا إلى الخارج حتى نتخلص منه.

والفن كالدين والفلسفة وسيلة للتعبير عن أسمى حاجات ومتطلبات الروح في تطابقها مع الأمور الإلهية، لكنه يختلف عنهما في أنه يعطينا عن هذه المثل العليا صورة حسية يضعها في متـــناول أيدينا، إنه همزة وصل بين عالمي المادة والروح[10].

ويبقى الفن في نظرنا ضرورة لمحاربة العنف، حيث تسمو مكانته على كل الوسائل والأساليب الأخرى.

الهوامـــش:

(1) جولييوس بورنتوي ــ الفيلسوف والفن الموسيقي ــ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ــ مراجعة الدكتور حسين فوزي ــ المكتبة العربية ــ 155 ــ ص 36 الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة 1974.

(2) سمير الحاج شاهين ــ روح الموسيقى ــ ص 9 ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ ط 1 ــ بيروت 1980.

(3) شاهين ــ نفسه ص 9.

(4) شاهين ــ نفسه ص 8.

(5) بورنتوي ــ السابق نفسه ص 15.

(6) بورنتوي ــ نفسه ص 15 وص 16.

(7) بورنتوي ــ نفسه ص 18.

(8) بورنتوي ــ نفسه ص 8

(9) بورنتوي نفسه ص 11.

(10) شاهين ــ السابق نفسه ص 12.